

النظريات المفسرة للنمو

محاضرة رقم 05: نظرية التحليل النفسي:

مقدمة:

يُعد سيغموند فرويد (Sigmund Freud) المؤسس الأول لمدرسة التحليل النفسي، وهي طريقة في الفهم والعلاج النفسي تقوم على الكشف عن الدوافع اللاواعية التي تحرك السلوك الإنساني. انطلقت نظريته من ملاحظاته السريرية للمرضى الذين كانوا يترددون على عيادته لفترات طويلة، حيث اعتمد في علاجه على التنويم المغناطيسي، ثم طور أسلوبه التداعي الحر وتحليل الأحلام للكشف عن المكبوتات النفسية والصراعات الداخلية بين أجهزة النفس الثلاثة : الهو (مستودع الغرائز والرغبات)، الأنا (الوسيط الواقعي)، والأنا الأعلى (الضمير والمعايير الأخلاقية).

أولاً: مراحل النمو النفسي الجنسي عند فرويد: رأى فرويد أن الطاقة النفسية تتجسد في الليبيدو (الدافع الجنسي) الذي ينتقل عبر مراحل تطورية محددة:

1. المرحلة الفمية : (من الولادة حتى السنة الثانية / من 0 إلى 2 سنة) تتركز اللذة في الفم، من خلال الرضاعة والمص، إذا حدث تثبيت في هذه المرحلة فذلك يؤدي إلى تكوين بنية ذهانية.

2. المرحلة الشرجية: (من السنة الثانية حتى الثالثة) تتركز اللذة في الإخراج، ويظهر الطفل الصراع بين السيطرة والطاعة، كما تتكون سمات كالعناد (أزمة المعارضة) وهذا يدل تحقيق تكوين الانا كركن أساسي في الجهاز النفسي.

3. المرحلة القضيبية: (من الثالثة إلى الخامسة) تتركز اللذة في الأعضاء التناسلية، ويمكن الحديث هنا عن عقدة أوديب عند الذكر وعقدة إلكترا عند الأنثى، هذين المصطلحين هما إسقاطات لأحداث أسطورية سابقة من أجل فهم التغيرات النفسيه في هذه المرحلة، كما ان هذه المرحلة تتميز أساسا بالتقمص الوالدي (نتاج رغبة تناسلية حسب فرويد) ، والتثبيت في هذه المرحلة يؤدي إلى اضطرابات عصابية، وتبدأ هنا تشكل دلالات الأنا الأعلى فيبدأ الطفل في تعلم ماهو مرغوب وماهو ممنوع، لكن سيتجلى ذلك أثر في المرحلة التالية للنمو.

4. **مرحلة الكمون :** (من السادسة إلى حوالي الثانية عشرة) تخفت الدوافع الجنسية وتتحول الطاقة إلى أنشطة معرفية واجتماعية، وتشكل معايير الأنا الأعلى.

5. **المرحلة التناسلية :** (من المراهقة فصاعداً) تمثل النضج الجنسي والعاطفي، حيث أصبح الجهاز النفسي متكاملًا، ويبدأ الفرد هنا بالبحث عن الاستقلالية والعمل والعطاء، وهذا يدفع به إلى التمرد في الكثير من الأحيان، كما تتميز هذه المرحلة بعودة الصراع النفسي.

ثانياً: آنا فرويد "التحليل النفسي للطفل وتطور الأنا":

انطلقت آنا فرويد من النظرية الفرويدية لكنها طورت فرعاً خاصاً بالتحليل النفسي للأطفال لاحظت أن الطرائق الكلاسيكية (كتحليل الأحلام والتداعي الحر) لا تصلح تماماً مع الأطفال لصعوبة لغتهم وقصور انتباههم واعتمادهم الكبير على البيئة. ورأت أن الآباء يمثلون الأنا الأعلى البديل في الطفولة المبكرة، وأن اللعب يمثل بديلاً علاجياً فعالاً للتداعي الحر، إذ يكشف عن الصراعات والرغبات اللاواعية. في كتابها الشهير "الأنا وآلياتها الدفاعية" (1936)، ركزت على تطور الأنا وآليات الدفاع التي يعتمدها الطفل للتكيف (كالكبت، والتبرير، والإسقاط...)، ورأت أن النمو النفسي يتم عبر خطوط تطور متوازية تشمل الانتقال من الاعتمادية إلى الاستقلال الانفعالي، ومن اللعب الذاتي إلى التفاعل مع الموضوعات الخارجية.

ثالثاً: كارل يونغ اللاشعور الجمعي:

انفصل يونغ عن فرويد لرفضه حصر الدوافع في الجنس، وابتكر ما سماه التحليل النفسي العميق. اعتبر أن النفس البشرية تتضمن اللاوعي الفردي واللاوعي الجمعي الذي يضم الأنماط الأصلية كالذات، والأم الكبرى، والبطل. كما رأى أن الهدف من النمو النفسي هو تحقيق التحليل الذاتي أو التفرد، أي التكامل بين مكونات الشخصية الواعية واللاواعية.

رابعاً: ألفرد آدلر "علم النفس الفردي":

أسس آدلر ما سماه علم النفس الفردي، معارضاً تصور فرويد للصراع الجنسي. اعتبر أن الدافع الأساسي للسلوك هو السعي نحو التفوق وتعويض مشاعر النقص الناتجة عن العجز أو الضعف في الطفولة. كما أكد على الأسلوب الحياتي الذي يميز كل فرد، وعلى العلاقات الاجتماعية كعامل مركزي في النمو النفسي.

خامساً: كارين هورني "النظرية الثقافية في التحليل النفسي":

انتقدت هورني النزعة الذكورية في التحليل الفرويدي، واعتبرت أن القلق الأساسي ينشأ من الافتقار إلى الأمان في الطفولة بسبب العلاقات الأبوية السلبية. طورت مفهوم الاتجاهات العصائية الثلاثة: التوجه نحو الناس، ضد الناس، أو الابتعاد عنهم. ورأت أن الثقافة والمجتمع يلعبان دوراً حاسماً في تشكيل الشخصية، وليس الدافع الجنسي وحده.

سادساً: ميلاني كلاين "نظرية العلاقات الموضوعية":

ركزت ميلاني كلاين على العلاقة المبكرة بين الطفل والأم، واعتبرت أن اللعب الرمزي وسيلة للكشف عن الصراعات اللاواعية. أسست نظرية العلاقات بالموضوع التي ترى أن الطفل يُكوّن صوراً داخلية للأشخاص المهمين (موضوعات الحب والكراهة) تشكل أساس الشخصية المستقبلية. ورأت أن القلق الأولي ينبع من الخوف من فقدان "الموضوع الجيد" (الأم)، وأن الدفاعات الأولى للطفل مثل الانقسام والإسقاط وغيرها تُعد محورية في بناء الأنا.

خلاصة:

من خلال تتبع تطور التحليل النفسي من فرويد إلى تلامذته، نلاحظ أن هذا التيار انتقل من التركيز على الغرائز الجنسية إلى الاهتمام بالأنا والعلاقات الاجتماعية والرمزية. فقد أسس فرويد البنية المفاهيمية (الهو – الأنا – الأنا الأعلى)، بينما عمّقت آنا فرويد فهم آليات الدفاع والتكيف، وأعاد يونغ وآدلر وهورني وكلاين توجيه النظرية نحو الهوية الفردية والعلاقات الإنسانية. وهكذا تحولت مدرسة التحليل النفسي من رؤية أحادية حول الصراع الجنسي إلى مقاربة شمولية لفهم النمو النفسي والشخصية الإنسانية عبر تفاعل الدوافع، والعلاقات، والثقافة.